مشاعر زوجة رائد الفضاء

السيدة هند فارس *

بسم الله الرحمن الرحيم

أنا لست بمحاضرة علم أو ثقافة، وإنما أتيت إلى هنا بعد إصرار من رئيس جمعية هواة الفلك السورية والعديد من أعضاء الجمعية وبعفوية مطلقة لكي أنقل لكم مشاعر وذكريات زوجة حملت في ثناياها صهيل زمن وصراعاً دفيناً يمتزج بالفرح والألم، حملت لحظات خوف وقلق وشجن، حملت دمعة وابتسامة عايشتها عامين من الزمن.

في البداية لابد لي أن أعطيكم لمحة مبسطة عن حياتي..

أنا امرأة لم يشاء لها القدر أن تكمل تعليمها في الجامعات، وإنما شاء قدرها أن تكون زوجة أول سفير للفضاء عن وطنها الحبيب سورية، هذا الوطن الذي عشقنا ترابه وترعرعنا على خيراته ورضعنا حبه من قائده الرئيس الخالد حافظ الأسد، فكيف لنا بأن نبخل عليه بكل ما نملك ولا نفديه بأرواحنا وأولادنا وبأغلى ما عندنا. فشهادتها الكبرى زوجها، وثمارهما أولادهما الخمسة. هذا الرجل وباسمه الكبير أعطاني الكثير من علمه وثقافته وحكمته وإرادته وشجاعته وصبره على الصعاب، فكان لي سنداً في كل أمور حياتي، فمن خلاله أستمد قوتي وصبري وحكمتي في الحياة.

والآن سألملم أفكاري وأعود بذاكرتي ربع قرن للوراء..

* *السيدة هند فارس هي زوجة رائد الفضاء العربي السوري اللواء محمد فارس، والتي عاصرته خلال رحلته إلى محطة الفضاء الدولية «مير» في عام 1987. ألقيت هذه المحاضرة ضمن برنامج محاضرات جمعية هواة الفلك السورية بتاريخ 2.1/2/16. في المركز الثقافي العربي بكفرسوسة.*

فربع قرن من الزمن ليس بقليل. كنت زوجة في الرابعة والعشرين من عمري، وأماً لبرعمين صغيرين لم يقوى عودهما بعد، وجنين في شهره الرابع أحمله بين أحشائي عندما بدأت رحلتي الشاقة والقاسية، والممتعة في آن. رحلة مليئة بالمخاطر، ومحفوفة بالمغامرات. هنا سأبدأ معكم مشواري لأنقلكم معي إلى قلب الحدث وأعطيكم صورة موجزة عن هذا الانجاز. فرحلتي تحتاج لساعات للحديث عنها، ومشاعري يلزمها مجلدات لأدونها في طيات الزمن.

بعد مرور أكثر من شهرين وبعد الفحوصات الدقيقة على مجموعة كبيرة من الطيارين تقرر إرسال أربعة من الطيارين المنتقين إلى الاتحاد السوفيتي آنذاك. وكان من المقرر إعادة الاختبارات هناك لتحديد الطيارين الأساسيين اللذين سينطلقان إلى الفضاء. وبعد مرور خمسة عشرة يوماً تقريباً، وكأنها دهر من الزمن، كنت أنتظر ذلك القرار الذي سيحدد المصير وينقلنا إلى ذاك العالم الجديد، جاء وهو يحمل معه نبأ اختياره لهذه المهمة.

تلقيت النبأ وأنا في حالة ذهول مما أسمع.. لم أكن أتوقع أبداً أننا سنحظى بهذا القرار الذي أخافني وأسعدني، رغم أنني لم أكن أعرف شيئاً عن هذه المهمة التي أوكلت إليه. كنت أحاول فهم القليل منه، لكنه كان يكتفي بأن يقول بأنها مهمة سرية للغاية لا أريد الإفصاح عنها. كنت أكتفي بهذا الجواب لأعود لصمتي وتساؤلاتي. علامات استفهام، وإشارات تعجب، تجول في خاطري، ترى ماذا يخبئه لنا القدر؟ هنا ابتدأ مشواري..

بعد التحضيرات والتي استغرقت أيام، ودعنا فيها الأهل والأصدقاء من مدينة حلب. رميت في جعبتي نثرات الماضي وحقبة من الزمن، توجهنا إلى مدينة دمشق منطلقين إلى مدينة النجوم، مدينة رواد الفضاء التي كانت تبعد عن موسكو خمسين كيلومتراً. وبعد إجراء الفحوصات المطلوبة الضرورية واللازمة للعائلتين حصلنا على الإذن بالدخول متجهين إلى فندق رواد الفضاء. كان هناك وفد كبير رفيع المستوى ينتظرنا ليعطونا التعليمات والإرشادات اللازمة.

ومن خلال إرهاقي كنت أتأمل ذلك المكان البديع الذي يسحر الناظرين بروعته ودقة تنظيمه وكأن ريشة فنان صقلته. يا لها من مدينة فاتنة، مدينة رائعة بغاباتها وبحيراتها وأشجارها المشوقة التي تكسوها الثلوج، وكأنها عروس تلبس ثوب زفافها يوم عرسها لتتمايل على أنغام السكون. كنت مندهشة لما أرى وأنا أنظر لهذا العالم الجديد وأفكاري تتلاشى مابين المد والجزر. مئات، بل آلاف الأسئلة، تجول في ذهني لم أجد لها تفسيراً.. يا له من عالم مبهم وغريب عني تماماً، عالم لا أفهم لغته، ولا أعرف شيئاً عن تقاليده وعاداته. كيف لي أن أتعامل معه وأنا أجهل كل شيء عنه؟

في اليوم التالي وفور وصولنا بدأت الصورة تتبلور أمامي، فأدركت بأن هناك أسراراً يجب فيها أن أعتمد على نفسي لاكتشافها ومعرفة خفاياها، ولكي أستفيد من هذه المرحلة.. بدأت أدرك بأن هناك رسالة وطن بأكمله وقعت على عاتقنا لنكون سفراء لهذا الوطن، وأن هناك مسؤولية كبيرة تنتظرنا يجب علينا أن

نتقاسمها. فكانت مهمته أن يباشر عمله من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة السادسة مساءً. أما مهمتي فكانت كمهمة أية زوجة تقف إلى جانب زوجها لتحثه على العمل، فتؤمن له كل وسائل الراحة لكي يعطي كل ما بوسعه ويكرس كل إمكانياته لإتمام الرسالة التي حملها. فأبذل كل طاقاتي لإنجاحها وتحقيقها من خلال مهمتي. فخطوة الألف ميل تبدأ بخطوة..

هناك متحولة عالمية تقول بان وراء كل رجل عظيم امرأة، أما أنا فضد هذه المقولة. ولكن يمكنني أن أقول بأن وراء كل رجل ناجح أو مبدع أو مميز امرأة تعطيه المد، تعطيه الحب، تعطيه الدفع، وتكون له الصدر الدافئ والقلب الحنون لترفع من معنوياته وتسانده في الحياة. فالعظمة لا تكون إلا للخالق العظيم سبحانه وتعالى، فلا عظيم سواه، فالله حينما يخلقنا يخلق معنا يوم ميلادنا ويوم موتنا وقدرنا في الحياة. فأنا لا أنسب نجاحه لي أبداً، ولا أنكر له تعبه على نفسه، فهو بفضل مثابرته على العلم وتصميمه وإرادته وتنظيمه لأوقاته ورضاء الله ووالديه عليه وتمسكه بجذوره وعقيدته وإيمانه بالله والوطن قد استطاع أن يصبح رجلاً مميزاً..

عام كامل مضى علينا وهو لا يزال يواظب على عمله وينغمس بدراسته وتدريباته المضنية. أما أنا فيوماً بعد يوم بدأت أتأقلم مع هذه الحياة الرتيبة والمنتظمة.. بدأت أنظم أوقاتي مابين واجباتي نحو أطفالي لأعود وأنشغل بأموري. حاولت أن أتعلم لغتهم من خلال الأصدقاء الذين كونتهم في تلك الفترة لأتعايش معهم وأتعلم منهم الكثير. لقد أصبح لي العديد من الأصدقاء الذين أحبوني وأحببتهم فكانوا لا يتوانون عن تقديم المساعدة لي ولأولادي. كنت أذهب للأسواق لقضاء حاجاتي وأمارس الرياضة لأملأ أوقاتي. أما في أيام العطل فكانت لنا أوقات ترفيهية لنذهب فيها إلى موسكو ونتعرف على تاريخهم وحضاراتهم وآثارهم ومعالمهم ونذهب للمسارح لسماع ورؤية إبداع فنهم الراقي.

إلى أن أتى ذلك اليوم العصيب: يوم الاختيار وتحديد القرار لنعرف من هو الأساسي الذي سيحلق بهذا الكون الفسيح..

كان يوماً صعباً جداً بالنسبة لي لا أستطيع وصفه، فكل مرحلة من تلك المراحل يلزمها وقت طويل للشرح عنها، وبالتحديد كانت الساعة الثالثة ظهراً من أحد أيام الإثنين في عام 1986. بعد أن عقد مؤتمر صحفي ضم وفداً كبيراً من كبار الشخصيات الذين أتوا من سورية ووفد كبير من كبار الشخصيات الروس ليقروا ذلك المصير..

كنت في بيتي أنتظره، لأتلقى منه خبراً يسعدني، ومع الزمن كانت معاناتي كل لحظة تمر وكأنها دهرٌ من الزمن. جاء، كنت أنظر لعينيه علني أقرأ منها شيئاً يهدئ من روعي وفزعي، كاد قلبي ينفطر خوفاً.. لحظات من الصمت القاتل بالنسبة لي، وبعد دقائق حاولت أن اكسر ذلك الصمت بيننا لأسأله ماذا جرى..

نظر إلي بعينيه البراقتين وهدوئه واتزانه وتواضعه الذي أعهده ليقول: نعم لقد تم اختياري. لكن اهدئي.. مازال هناك سبعة أشهر من العمل، ولا أحد يعرف ما الذي يخبئه القدر.

تلعثمت كلماتي، يا لدهشتي مما أسمع! هل أعبر عن فرصتي أم أكتمها لحينها؟ ترى هل سيتحقق الأمل ليصبح الحلم حقيقة؟ بدأت أشعر بأن مسؤوليتي أكبر والأمل أصبح أكبر، فالأمل هو الطاقة السحرية الكامنة في نفس البشرية والتي تجعلنا نتحمل آلام الحياة ومصاعبها ونقاوم تيارات اليأس والعجز. فسأجمع كل إمكانياتي لتحقيق ذلك الأمل.

وببطء قاتل، وصراع الزمن، أتى يوم الوداع...

بصفة رسمية وشعبية خرجنا جميعاً إلى ساحة المدينة لينطلق هو ورفاقه من مدينة النجوم إلى قاعدة الإطلاق في بايكنور، والتي تفصل بيننا وبينها آلاف المسافات. يا لها من لحظات مؤثرة، وكأنها مأساة عندما ضم صغاره إلى صدره وهو يودعهم وهم ينظرون إليه وأعينهم ملأى بالدموع والتساؤلات الغريبة، ماذا يجري في هذا العالم المبهم من حولهم؟ ما هذا الشعور؟ كنت أحاول فهمهم من وراء دمعتهم، هل هو شعور فخر واعتزاز أم هو شعور خوف من المستقبل؟ فتارةً ينظرون إليه علهم يفهمون منه شيء، وتارة أخرى وببراءة الطفولة ينظرون إلي وكأنهم يعاتبونني من خلال محاكاتي بيني وبين نفسي ومناجاتي مع الله جلت قدرته عله يسمع دعواتي..

لحظات من التأمل كنت أنتظر فيها دوري لوداعه، اقتربت منه فنظرت إليه كأنه كان يريد أن يحكي لي قصة زمن وفي عينيه دمعة تأبى أن تنهمر. رأيت من ورائها قوة إرادته وشجاعته وإيمانه وتصميمه لترتسم على شفتيه ابتسامة وكأنه ينتظر فيها دافعاً مني لينقله إلى عالمه المجهول..

أحسست بأن روحي سوف تنفصل عن جسدي فألقيت برأسي المثقل على كتفيه بوقار لأقول له الله معك وقلبي يرافقك.. الكل هنا يراقب المشهد، أمي التي أتت لتحمل معي بضعاً من آلامي وأفراحي، ولأستمد من دعواتها وصلواتها صبري وإيماني فتكون لي سنداً في هذه المحنة. أصدقائي الذين أتوا ليخففوا علي غربتي، فالقلب يبكي والعيون تحكي ولا تدمع.

ودعته وأنا ألقي آخر نظرة على الحافلة التي ستنقله إلى العالم البعيد، وكانت وكأنها نظرة لوم وعتب.. إلى من ستكلني، فإن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي.

عدت إلى بيتي إلى مملكتي الصغيرة وأنا مثقلة، أحمل معي زغبيين من القطا وقلباً يزداد ألماً لذكراه.. انقطع التواصل بيننا.. عدت لأجمع قواي وأنهض من جديد كي أدرك تماماً بأن مسؤوليتي باتت أكبر، فأطفالي اليوم بحاجة لي أكثر، ومهما كانت النتيجة فسوف أتقبلها.

خمسة عشرة يوماً وأنا أعاني من لوعة الفراق، إلى أن أتى ذلك اليوم الرهيب، يوم الانطلاق، يوم الخوف الحقيقي.

في الثاني والعشرين من تموز عام 1987 تقرر الموعد، وقبل صعوده للمركبة بدقائق، وما بين الفصل والوصل، كان الاتصال بالهاتف بيننا. وبعد حديث مطول دار بيننا لا أستطيع نسيانه فما يزال محفوراً بذاكرتي. وقبل أن ينقطع التواصل، قال لي: أتمنى أن تكملي مشواري مع الحياة، لتكوني أماً وأباً لأولادنا. مرة أخرى حاولت أن أجمع قواي وألملم دمعتي لأزوده قوة من ضعفي ومن إيماني عزيمة لأقول له: انطلق فالله يحميك وقلبي يحرسك.

بدأ العد التنازلي للانطلاق.. حالة ذعر وفزع كانت تداهمني، برغم معاناتي كنت أخاف طفولة أن تسمع سكناتي، وأماً تضنيها أناتي، فخطورة الموقف كانت أكبر من احتمالاتي. فبزحمة أفكاري كنت أتتبع الحدث وأنا لا أملك سوى ابتهالاتي وصلواتي. والملايين في الوطن كانت ترقبه بأعين مشدودة وأعناق مرفوعة وأيدي مفتوحة بتوسلاتهم إلى الله العزيز القدير بأن يعيده إلى أرض الوطن سالماً. فالكل في وطني كان يقف بجانبي فيشعر بمشاعري وأحاسيسي، وكل تلك المشاعر كانت تنقل إلي من خلال وسائل الإعلام. كنت أرقب السماء وكأن القمر كاد أن يلامس رأس الصاروخ.

ومن خلال السكون الذي كان يخيم على المكان انطلق صوت المذيع ليقول: انطلق فالله معك والسماء تفتح لك الأبواب وكل النجوم جاءت إليك لتستقبلك. يا محمد فارس، فبحرقة الماضي ورهبة الحاضر وفرحة المستقبل كنت أنتظر ذلك اللقاء. أوقات عصيبة ومضنية مرت إلى أن أتت لحظة الالتحام بالمحطة مير فمرت بسلام. في اليوم الثالث حان موعد اللقاء التاريخي مع سيد الوطن وقائده الرئيس حافظ الأسد. يا له من لقاء مؤثر ارتعشت له الأبدان واهتزت له المشاعر والأحاسيس فشعرت من خلاله بالحنين للوطن وارتفعت معنوياتي بذلك اللقاء.

اليوم الرابع وكما جرت العادة عندهم في كل إطلاق كان يأتي وفدان كبيران من البلدين لزيارة أهل الرواد ليزودوهم بالأمل ويهدؤوا من روعتهم.. يا لها من لفتة كريمة منهم.. فكان دوري هنا، أن أعطيهم صورة عن بلدي، عن عاداتنا، وتقاليدنا، فكانت الموائد حافلة بالمأكولات الشرقية، فكانوا سعداء جداً بتلك العادات. عدت مرة أخرى لهواجسي وأفكاري، فما زال هناك أربعة أيام على الانتهاء..

ثمانية أيام أخرى مضت وأنا أتتبع الحدث لحظة بلحظة، فكان النوم قد جافاني، لأتلقى أخباره من خلال هواتفهم من مركز الأرض لينقلوا إلي الصورة كاملة عن برنامج الرحلة. وكأنني أعيش معه، ماذا يفعل؟ وماذا يأكل؟ وكيف ينام؟ ودهر آخر من الزمن مضى وأنا أرقب ذلك الانجاز إلى أن أتى يوم الهبوط والعودة إلى الأرض.

هيئت نفسي وأمي وصغاري لذلك اللقاء، وعلى دقات الساعة القاتلة والتي كانت تمر ببطء شديد ازداد خفقان قلبي. صمت ثقيل يخيم علينا من خلال الشاشة التي كنا نجلس حولها وبعضاً من رفاقي والوطن بأكمله. كنا نراقب ذلك المشهد معاً، فالأعين تدمع والقلوب تخشع ومابين رحمة السماء ولطف القدر ظهرت الكبسولة لتتأرجح بين الفضاء والأرض، وكـــأن قلبي كان يتأرجح معها. ورويداً رويداً بدأت تقترب من الأرض فلامستها وكأنها لامست نبضات قلبي. نظرت إلى ذلك الفارس من بين الجموع وهو يترجل عن صهوة حصانه لأرى في عينيه آثار الإرهاق والتعب.

وهنا أحسست بأن روحي عادت لترتد إلى جسدي. أفقت من غفوتي، وبغمرة فرحتي توجهت إلى الله سبحانه وتعالى لأحمده وأشكره، لأصلي له بأن أمنيتي قد تحققت وتمت رسالتي. صحوت لأدرك بأن ميلاده قد أصبح مرتين، فالأولى حينما خرج من رحم أمه، والأخرى عندما عاد إلى رحم الأرض. وبلوعة المشتاق بدأت أسابق الزمن لأهيئ نفسي وصغاري للحظة اللقاء، وهكذا كانت سعادتي..

ارتديت وأولادي زياً من تراث بلدنا لأرفع رأسي بعزة وشموخ وأقول أنا زوجة ذلك البطل العربي وهويتي امرأة عربية سورية ولغتها الأبجدية. كانت عيوني تائهة بين الحشود وهي تبحث عن ذلك البطل الآتي من عالم الفضاء. وبعد أن حطت الطائرة على أرض المطار رأيته كملاك يقبل إلي وكأنه يحمل القمر بين يديه ليضعه بين يدي، فكان اللقاء.. وبعد زحمة الاحتفالات والمراسم التي دامت أيام تم تقليده من الرئاسة السوفيتية بوسام بطل الاتحاد السوفيتي وبطل لينين من الدرجة الأولى.

عدنا لنلملم حاجاتنا ونحمل معنا ذكرياتنا لننقلها إلى وطننا، فخرجت المدينة بأكملها لوداعنا فكان وداعاً مؤلماً. كان يرافقنا وفد كبير من الرواد وزوجاتهم.

وبينما بدأت الطائرة ترفرف فوق سماء بلادي بدأت أشم رائحة عطر الوطن.